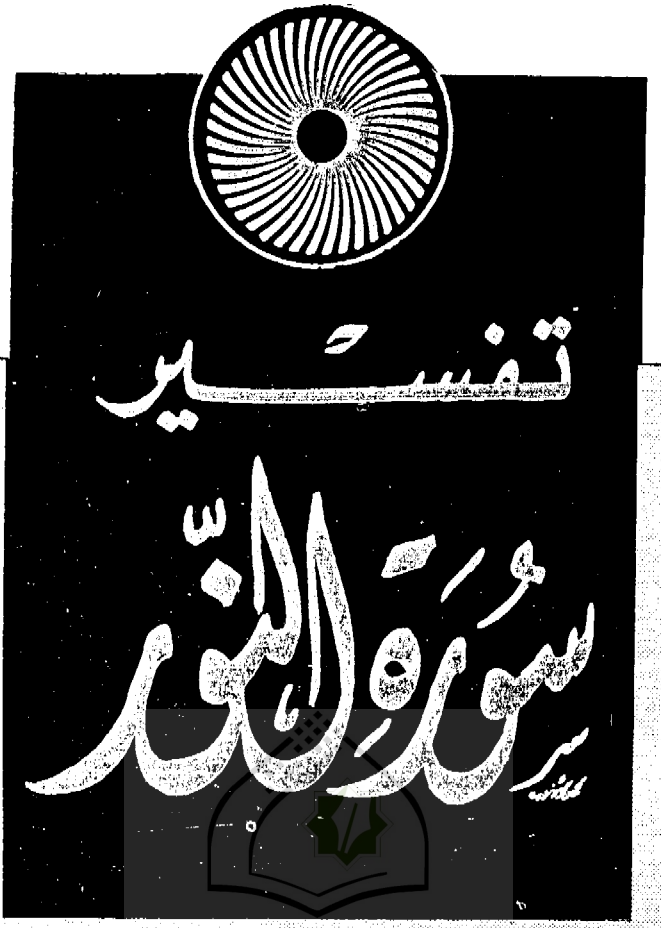

قال الله تعالى :

(ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون . ولله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير)

النور/٤١ ، ٤٢

تفصيل المعـــانـــي :

(الم تر) : الاستفهام للتقرير ، والرؤية هنا علمية ، والخطاب لكل عاقل .

(يسبح له) : تسبيح الله تنزيهه عن النقص .

(من في السموات والأرض) : في السموات والارض عقلاء وغير عقلاء ، والكل يسبح بحمد الله ، وجاء التعبير بـ **(من)** التي تستعمل للعاقل تغليبا للعقلاء .. والعقلاء الذين خلقهم الله تعالى في السموات والأرض لا يعلمهم ويحصيهم الا الله ، والعلم الانساني يقطع بوجود البشر في الأرض لأن هذا الوجود محسوس ومشاهد .. والمؤمنون من بني الانسان يعتقدون وجود الملائكة والجن لذكرهما في القرآن الكريم الذي آمنوا بنزوله من عند الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم . ولا يعرفون عنهما سوى ما أخبرهم به الخالق جل وعلا ... وقد يكون هناك من العقلاء ـــ غير الملائكة والجن ـــ في كوكب غير الأرض كونهم الله على طبائع وصور تتفق مع طبيعة ذلك الكوكب ، وقد لا يكون .

وقد أخبر الله تعالى عن الملائكة في كثير من آيات القرآن الكريم ، ان حياتهم كلها عبادة وتسبيح لله بالليل والنهار دون انقطاع ولا فتور ولا ملل ، ومن هذه الآيات قوله تعالى : **(وله من في السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون.يسبحون الليل والنهار لا يفترون)** الانبياء/١٩ و ٢٠ وقوله تعالى : **(فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون)** فصلت/٣٨ .

واخبر عن الجن بأن نفرا منهم آمنوا بالله ولم يشركوا به شيئا ، ونزهوه عن الصاحبة والولد : **(قل اوحي إلى انه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا.يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا احدا . وانه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا)** الجن/١ و ٢ و ٣ ... كما بين الله تعالى في كتابه الكريم أن طبيعة الجن طبيعة مزدوجة كطبيعة الانسان، في الاستعداد للخير والشر والهدى والضلال : **(وانا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قِدَدا)** الجن/١١ **(وانا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن اسلم فاولئك تحروا رشدا)** الجن/١٤ .

وذلك فيما عدا ابليس وقبيله فانهم تمحضوا للشر : (**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه**) الكهف/٥٠ . (**وكان الشيطان لربه كفوراً**) الاسراء/٢٧ . (**إن الشيطان كان للرحمن عصيا**) مريم/٤٤ .

(**والطير صافات**) : معطوف على (**من**) في قوله تعالى : (**من في السموات والأرض**) وهو لفظ يطلق على الواحد والاكثر .

اي تسبح الطير لله في حال طيرانها ، لا تشغلها تلك الحال عن تسبيح خالقها .

ومعنى (**صافات**) باسطات اجنحتها في الهواء .. وخص الطير بالذكر مع دخولها فيما تقدم لاحوالها العجيبة التي تلفت النظر ، فهي تضم اجنحتها الى جوانبها عند الشروع في الطيران ، وتبسطها في الهواء وهي طائرة وقد تقبضها وهي في الهواء ايضا .. وتحفظ نفسها من السقوط على الارض بتلك الاجنحة وغيرها مما اودعه الله فيها : (**او لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير**) الملك/١٩ . (**ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون**) النحل/٧٩ . وجو السماء هو ما بين السماء والأرض، واضيف الى السماء لأن الطير حين يطير يرتفع من الأرض نحو السماء في مرأى العين .

(**كل قد علم صلاته وتسبيحه**) :

اي كل من مخلوقات الله قد علم صلاته وتسبيحه بتعليم الله وتوجيهه .

(**والله عليم بما يفعلون**) :

فهو سبحانه عالم بصلاة وتسبيح كل من في السموات والأرض لا يخفى عليه من ذلك شيء .

(**ولله ملك السموات والأرض**) :

هو وحده مالك الكون ، والكون بكل ما فيه لا ملجأ له سواه ، فهو الذي يقوم بتدبيره وتصريفه . ويحكم في امره ولا معقب لحكمه ، ولا تنبغي العبادة الا له .

(**وإلى الله المصير**) :

فالأمر له في الآخرة كما هو له في الدنيا ، وملكيته للكون ملكية ثابتة دائمة لا تغير فيها ولا تعديل ، والعباد مصيرهم اليه ، فيجازي المحسن باحسانه والمسيء بإساءته : (**ولله ما في السموات وما في الأرض ليَجزِيَ الذين اساءوا بما عملوا ويَجزِيَ الذين احسنوا بالحسنى**) النجم/٣١ .

وقد درج بعض المفسرين على أن تسبيح المخلوقات التي لا تعقل تسبيح مجازي معناه : ان هذه الموجودات صنعة متقنة ، وكل نوع منها يؤدي وظيفته وفق الناموس الكوني الذي رسمه الله ، وهي بذلك تدل على وجود الله وقدرته

وحكمته وكماله ووحدانيته فتوجه العقلاء الى معرفته والايمان به وتنزيهه وتسبيحه .. غير اننا نرى أن جميع مخلوقات الله عاقلها وغير عاقلها يدل على وجود الله ، وان هذه الدلالة لا تتوقف على وصف هذه المخلوقات بأنها تسبح الله فقد عاتب الله الانسان على تقصيره في حقه ، وسوء أدبه في جانبه رغم ما أغدق عليه من كرمه وفضله حيث خلقه على صورة سوية جميلة معتدلة تدل على قدرة الخالق وابداعه فقال تعالى : (**يايها الإنسان ما غرك بربك الكريم.الذي خلقك فسوّاك فعدلك . في اي صورة ما شاء ركبك**) الانفطار/٦ ــ ٨ .ووجه الله نظر الانسان الى الكون وما فيه حتى يستدل منه على وجود خالقه وصانعه في آيات كثيرة منها :

قوله تعالى : (**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فاحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون**) البقرة/١٦٤ .

وقوله تعالى : (**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب**) آل عمران/١٩٠ .

وقوله تعالى : (**افلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت.وإلى الأرض كيف سطحت**) الغاشية/١٧ ــ ٢٠ .

فالدلالة على الصانع جل وعلا يحققها وجود المخلوقات ــ عاقلها وغير عاقلها ــ على هذا الابداع الذي نحس به ونراه ونعقله ، من غير ان توصف بانها تسبح الله ، فلا بد أن يكون لوصفها بتسبيح الله في بعض الآيات معنى آخر وذلك المعنى هو حقيقة التسبيح فالنصوص القرآنية تؤخذ على ظاهر مدلولها ، وهو ان جميع المخلوقات التي يشتمل عليها الكون تتوجه الى خالقها بالتسبيح اختيارا أو تسخيرا . والاستحالة في ذلك .

لقد بين الله تعالى أن كل شيء في هذا الكون يسبح بحمد الله ــ بطريقته ولغته فقال تعالى:(**تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا**) الاسراء/٤٤ . والانسان ــ فقط ــ من بين هذا الكون المسبح بحمد الله هو الذي يوجد من بين أفراده من يشرك بالله ، ومن يغفل عن تسبيح الله وحده ، مع أن الانسان أولى المخلوقات جميعا بمعرفة الله وتوحيده وتسبيحه وحمده ، ولولا حلم الله ومغفرته لعجل العقوبة للكافرين والمقصرين ، ولكنه يمهلهم ليوم الحساب:(**ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين**) آل عمران/١٧٨ .

فحينما يقول الله تعالى في افتتاح سورة الحديد : (**سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم**) الحديد/١ .. وفي افتتاح سورتي الحشر والصف : (**سبح لله مافي السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم**) الحشر/١والصف/١

.. وفي افتتاح سورة الجمعة : (**يسبح لله ما في السموات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم**) الجمعة/١ . فالنص صالح أن يؤخذ على ظاهر مدلوله دون تاويل ولا تعديل ، فكل ما في السموات وما في الأرض متجه الى الله بالتسبيح والتمجيد والتنزيه لا فرق بين العقلاء وغيرهم ، العقلاء يسبحون الله مختارين ، وغيرهم يسبحونه مسخرين .

وقد جاء في القرآن الكريم — في قصة داود عليه السلام — ما يؤيد هذا .. كان داود نبيا ملكا وآتاه الله مع النبوة قلبا ذاكرا ، وصوتا حسنا يرجع به تراتيله التي يسبح فيها ربه ، وكانت الجبال تسبح معه بالعشى والاشراق ، والطير تتجمع عليه لتسمع له وتسبح معه : (**ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير**) سبأ/١٠ . (**واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه اواب . إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق . والطير محشورة كل له أواب**) ص/١٧ — ١٩

واخرج مسلم في صحيحه عن جابر بن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**إن بمكة حجرا كان يسلم على ليالي بعثت إني لأعرفه الآن**) .

وروى الترمذي باسناده عن علي رضي الله عنه قال : « كنت مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بمكة فخرجنا في بعض نواحيها ، فما استقبله شجر ولا جبل الا وهو يقول : السلام عليك يا رسول الله » .

وروى البخاري في صحيحه باسناده عن أنس بن مالك قال : خطب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الى لزق جذع فلما صنعوا له المنبر فخطب عليه حن الجذع حنين الناقة . فنزل الرسول فمسحه فسكن » .

وثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود انه قال : « كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل »

وقد بين الله تعالى أن الكون كله يتجه بفطرته في وحدة متناسقة الى خالقه يخضع لناموسه ويسجد له ، فيما عدا الانسان فهو يتفرق الى مؤمنين وكافرين، فقال تعالى : (**الم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء**) الحج/١٨ .

وفي مفتتح سورة الحديد (**سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم**) .

يقول الاستاذ « سيد قطب » رحمه الله : « لا حاجة لتأويل النص عن ظاهر مدلوله فالله يقول . ونحن لا نعلم شيئا عن طبيعة هذا الوجود وخصائصه أصدق مما يقوله لنا الله عنه . فـ (**سبح لله ما في السموات والأرض**) تعني (**سبح لله ما في السموات والأرض**) .. ولا تاويل ولا تعديل ! ولنا أن نأخذ من هذا أن كل ما في السموات والأرض له روح ، يتوجه بها الى خالقه بالتسبيح وان هذا لهو أقرب تصور يصدقه ما وردت به الآثار الصحيحة ، كما تصدقه تجارب بعض

القلوب في لحظات صفائها واشراقها ، واتصالها بالحقيقة الكامنة في الأشياء وراء اشكالها ومظاهرهـا » .. ثم يقول:« ولا داعي لتأويل هذه النصوص الصريحة لتوافق مقررات سابقة لنا عن طبائع الأشياء غير مستمدة من هذا القرآن . فكل مقرراتنا عن الوجود وكل تصوراتنا عن الكون ينبغي أن تنبع أولا من مقررات خالق هذا الكون ومبدع هذا الوجود » ظلال القرآن ج٢٧ ص٣٤٧٨ .

المعنـــى الاجمـــالـــي :

في الآيات السابقة عرض الله تعالى مشهدا للمؤمنين ، وقد اضاءت انوار الهداية قلوبهم ، واشرقت على ارواحهم وجوارحهم ، فسبحوا ربهم وعبدوه ، ولم تلههم اعمالهم في طلب المعيشة عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكـــاة .. فاذا انتهت حياتهم وصاروا الى ربهم جزاهم احسن ما عملوا وزادهم من فضله .. ومشهدا للكافرين وقد اغلقوا نوافذ قلوبهم حيال نور الله وهدايته ، فظلت قلوبهم مظلمة قاتمة ، يعيشون بها في ظلمات متكاثفة .. واذا ما حشروا الى ربهم وجدوا اعمالهم محبطة وضائعة ، ووجدوا الله لهم بالمرصاد يأخذهم — بكفرهم — أخذ عزيز مقتدر ، ويلقي بهم في نار جهنم خالدين فيها ابدا .

وفي هذه الآيات يعرض الله تعالى مشهدا للايمان والهدى في الكون الواسع كله في سمائه وارضه ، وما تحويه السماء والأرض من ملائكة ، وإنس ، وجن ، وحيوان ، ونبات ، وانهار ، وجبال ، وغير ذلك مما لا يعلمه الا الله .. فكـــل ما في الكون يسبح بحمد الله كما وجهه ربه وهداه .

والله تعالى بذلك يلفت نظر الانسان الى أن كل من حوله وما حولـــه مـــن مخلوقات الله في هذا الكون ، على اختلاف الاشكال والصور والطباع قد فطرها الله على الاتجاه اليه وتسبيحه ، فلا يصح له — وهو العاقل المكلف المسئول عن عمله — ان يغفل عن تسبيح الله الذي يعلم امره . لانه — بما ميزه الله مـــن عقل — أجدر المخلوقات بالايمان والتسبيح والذكر والصلاة .

وفي هذا الاعلام من الله تعالى لكل من يعقل من بني الانسان تقبيح لعمل الكافرين الذين لم يحترموا عقولهم ، فسقطوا عن منزلة الجمادات التي تسبح لخالقها وتسجد له .. كما فيه ما يزين عمل المؤمنين ويعلي شأنهم ، ويثبت قلوبهم على الايمان والهدى والتسبيح لله رب العالمين ، فقد احترموا عقولهم ، وشاركوا كل كائن في هذا الوجود صلاته وتسبيحه : **(الم تر ان الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون . ولله ملك السموات والارض وإلى الله المصير)** النور/٤١ و ٤٢ .